﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: 15 - 19]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِن منهجِ القُرآن الكريم إلحاقُ النِّذارة بالبِشارة؛ ترغيبًا في التَّوبة

انتقلت الآياتُ - بعد شرح أحوال المشركين، وعرضِ ما يستحقّون من العذاب، وما أُعِدَّ لهم من سوء الجزاء - إلى وصفِ أحوال المُتَّقين وما ينتظِرُهم مِن نعيمِ لقاءِ ما أخذوا به أنفسَهم في الدُّنيا من الإحسان، والانهماك في العبادة وبذل الصَّدقات في سبيل الله عن رضًا وسخاء[1]؛ وذلك ليُبَيِّن الفرقَ، ويتَّبعَ النّاسُ طريق الهدى[2]، فالجملة "اعتراضٌ قابَل به حال المؤمنين في يوم الدّين، جرى على عادةِ القُرآن في اتِّباع النِّذارة بالبِشارة، والتَّرهيب بالتَّرغيب"[3]، وبيان حالِ المحقِّ المتَّقي بعد بيانِ حالِ المغترِّ المجرم[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٍ﴾: أصلُ (عين) يدلُّ على عُضوٍ، به يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، والأصلُ في جَميعه ما ذُكِرَ[5]، وعَينُ الشَّيءِ نَفسُهُ، وتأتي بِمعنى المالِ العَتيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشتَرَيتُ عَينًا بِعَينٍ، أي: حاضِرًا بِحاضِرٍ[6]، ويُستعار العَينُ لمعانٍ هي موجودةٌ في الجارحة بنَظرات مختلفة، فاستُعير للثُّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهَيْئَة،

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1092.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 252.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

وفي سيَلانِ الماء مِنها، ويُقالُ لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لِما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتُقَّ: ماء مَعينٌ، أي: ظاهر للعيون[1]، ومِن معانيها: الجاسوس، وما ضُرِبَ مِن الدَّنانيرِ والدَّراهِم، وغير ذلك[2]، والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمعُ عَيْنٍ، وهو اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ يَخرجُ منه الماءُ مِن الأرضِ، أي: أنهار جارية.

2) ﴿يَهْجَعُونَ﴾: أصلُ (هجع) يدُلُّ على نَوم[3]، ومنه الهُجوعُ: نومُ اللَّيل دون النَّهار[4]، والهجعة: النَّومة الخفيفة، يُقال: أتيتُ فلانًا بعد هَجْعة، أي: بعد نومَة خَفيفَة مِن أوَّل اللَّيل[5]، والمُرادُ بالهُجوعِ هنا: النَّومُ الخَفيفُ، وهو الغِرارُ[6].

3) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على وقتٍ مِنَ الأوقات[7]، ومنه السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيلِ قُبَيْلَ الصُّبْحِ، وقيل: هو مِن ثُلُثِ اللَّيلِ الآخِرِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ، وقيل: هو اختِلاطُ ظَلامِ آخِرِ اللَّيلِ بِضياءِ النَّهارِ، ثُمَّ سُمّيَ به الوَقْتُ[8]، يُقال: أسْحَرَ الشَّخْصُ، يُسحِرُ إسحارًا، أي: صارَ في وقْتِ السَّحَرِ، ومِنهُ السَّحورُ، وهو: طَعامُ وقْتِ السَّحَرِ وشَرابُهُ[9]، ومِن مَعاني السَّحَرِ: البَياضُ في السَّوادِ، وطَرَفُ الشَّيءِ، وجَمعُه: أسحارٌ[10]، والأسحارُ في الآية معناها: جَمعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ[11]، ومقدِّمة الصُّبح[12].

4) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: أصْلُ (سأل) كلمة واحدة معناها: الاستِدعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[13]، ومِن مَعانيهِ: الاستِفهامُ، والاستِخْبارُ،

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجع).
(4) الخليل، العين: (هجع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (هجع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (سحر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سحر).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(12) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 3/ 200.
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ولسان العرب: (سأل).

والاستِعْلامُ والاستِفْسارُ[1]، يُقالُ: سَأَلْتُهُ عَن عِلْمٍ سُؤالًا ومَسألَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ، وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ، أي: طَلَبْتُ مِنهُ أن يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ[2]؛ إذ يُعبَّر عن الفقير؛ إذا كان مستدعيًا لشيءٍ بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ [الضحى: 10][3]، وهو المرادُ بالسّائل في الآية، أي: هو الفقير المُستجدي الطّالبُ العطاءَ[4].

5) ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: أصلُ (حرم) أصلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشديدُ[5]، منه الحُرْمُ، وهو المَنْع[6]، والمَحرومُ: الَّذي حُرِمَ الخَيْرَ حِرْمانًا[7]، وهو أيضًا مَن لا يَنمي له مالٌ، وقيل: إنَّه المُحارَفُ، أي: صاحب الحرفة الَّذي لا يكاد يَكتَسِبُ[8]، والمراد به في الآية: الَّذي تبعد عنه ممكنات الرِّزق بعد قُرْبِها منه، فيناله حرمان وفاقَةٌ، وهو مع ذلك لا يَسْأل[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جنّاتُ الله تعالى في الآخـرة لمَن أحسَنوا العمَل في الدُّنيا

فوزُ المتَّقين الَّذين اتَّقَوا الشِّركَ، وتجنَّبوا كلَّ ما يُغضب الله تعالى محقَّقٌ مؤكَّدٌ، بجنّاتٍ كثيرة ومنوَّعة، غنّاءَ بصنوفِ النَّعيم والخيرات، والتَّمتُّع بها وبما فيها من عيون الماء الفرات وغيره مِن العسَلِ المصفّى، واللَّبن الَّذي لم يتغيَّر طعمه، والخمر الَّذي هو لذَّة للشّاربين.

وهؤلاء المتَّقون يَتلقَّون هذا النَّعيم وغيره من كراماتِ ربِّهم ﷻ عليهم، ويغتَبِطون به، بعد رحلة حياتهم الدُّنيويَّة، العامرة بالعطاء والإحسان؛ قبولًا وتنفيذًا لِما شرَعَهُ الله تعالى لهم، ومِن ذلك قيامُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سأل).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سأل).
(4) المراغي، تفسير القرآن: 26/ 177، والراغب، المفردات في غريب القرآن: (سأل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (حرم).
(7) الخليل، العين: (حرم).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرم).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 175.

اللَّيالي، فيقومونَه بلا نوم ولا هُجوع إلّا أوقاتًا قليلةً من تلك اللَّيالي، وكانوا يؤخِّرون عبادةَ الاستغفار إلى أوقات السَّحَر قُبَيل الفجر من كلِّ ليلة؛ إذ يَرْغَبون إلى ربِّهم ﷻ أن يغفِر لهم التَّقصير؛ لأنَّهم كانوا يرجون أن يقوموا بعبادة ربِّهم والاجتهاد بين يديه أكثرَ ممّا فعلوه.

وكانوا يُخَصِّصون من صُنوف أموالهم وأرزاقهم قدْرًا يَختصّون به أهلَ العوز والحاجة ممَّن تعرَّض لهم بالسُّؤال، فسألهم العطاءَ، وممَّن تعفَّفوا عن المسألة من أهل الحرمان، فلم يسألوهُم مع شدَّة فاقَتهم وشدَّة حاجتهم، فيفطنون إليهم، ويَخُصّونهم بما تيَسَّر لهم من مالٍ يواسونَهُم بهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ عمّا قبله:

اخـــتـــلافُ الجُملَتَيْنِ غرضًا وأسلوبًا

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ لِما بينَهُما من كمال الانقطاعِ؛ إذِ الجملتان اختلفتا خبرًا وإنشاءً، فالجملةُ الأولى: ﴿ذُوقُواْ﴾ إنشائيَّةٌ؛ لكونِها أمرًا، والجملةُ الثّانية: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبريَّة، والغالبُ ألّا يُعطفَ الخبَرُ على الإنشاء.

ثُمَّ إنَّ الكلام السّابق في وعيد الكفّار، والكلامُ هُنا في وعْدِ المُتَّقين؛ فلمّا تبايَنا؛ كان الفَصْلُ بينَهما ملائمًا، فلا يَجْمَعُهما قَرن واحدٌ.

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

قد يُؤَكَّد الخبرُ اهـتـمـامًـا بـه بقطعِ النَّظر عن حال المُخاطَب

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، ومن مقتضياتها لتوكيد هذا الخبرِ بيانُ الاحتفاءِ بأخبار المتَّقين، "وقَد يَكونُ التَّأكيدُ من جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها ممّا يُهتَمُّ به، وإن لَم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[1]، فالمتَّقون هنا لا يَشُكّون

(1) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 74.

في إخباره ﷻ بأنَّ لهم جنّاتٍ وعيونًا، فكان في توكيده لهم احتفاءً بالخبر وتنبيهًا لغير المتَّقين بكرامتهم على الله تعالى.

كما اقتضى ذِكْرَ ﴿إِنَّ﴾ حالُ الخرّاصين المنكِرين للبعث، فهُم يُسَفِّهون إيمان المتَّقين، ولا يصدِّقون أنَّ لهم جنّاتِ النَّعيم في الآخرة، فجاء التَّوكيد مراعيًا تكريمَ المتَّقين من جهةٍ، معالجًا إنكارَ الكافرين من جهةٍ أخرى.

وممّا يدعَم ذلك مِن أغراض التَّوكيد سوْقُ هذا الخبر بِعَقِب وعيدِ الكافرين ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾، والإزراء بأقوالهم المتناقضة في الرَّسول ﷺ وفي القرآن الكريم.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ولطيفةُ جمعه:

(أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للاستغراقِ، أي: كلُّ من يتَّقي ما حرَّم الله تعالى، ومن ذلك "تجنُّب القول بالخَرَص والتَّخمين في الأمور الاعتقاديَّة"[1]، فـ "المتَّقي مطلق في اتِّقاء الكفر والمعاصي"[2]، وله مقاماتٌ يتفاوَتُ أهلُها في درجاتِ التَّقوى، و"ما من مكلَّف اجتَنَب الكفر؛ إلّا ويدخل الجنَّة، فيُرْزَق نعيمَها"[3]، إمّا ابتداءً، وإمّا مآلًا.

التَّقوى درجاتٌ ومراتِبُ

و(أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيها مَعْنى الكمال أيضًا، وأنَّهم كاملون في باب التَّقوى، فلا يَخرم تقواهم مُناقَضَةٌ لتَّوحيد الله تعالى، فهؤلاء هم الجديرون بهذا الخبر المؤكَّد، والوعد المحقَّق: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

سرُّ إيثارِ وصف ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على غيره من أوصافهم:

التَّقوى امتثال الأمر واجتناب النَّهي، فهي أجمعُ الأوصاف المطلوبةِ مِنَ العبدِ

في اصطفاء صفة التَّقوى في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دون غيرها مِن مثل المسلمين، والمؤمنين، والمخبتين وغيرها: اكتفاءٌ، فاكتُفي بوصف

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 37.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.

التَّقوى عنها جميعِها؛ لأنَّ كلَّ مُتَّقٍ للّه تعالى مسلمٌ له، مؤمِنٌ به، مُخْبت إليه، صادقٌ في سَيْرِه إلى اللّه تعالى، وهوَ من أهل الصَّلاة والزَّكاة، والصّيام والقيام، وعلى الجملةِ؛ فإنَّ المُتَّقي من يلتزم "امتثالَ الأمر واجتنابَ النَّهي"[1].

لطيفةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعل:

في التَّعبير عن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ دون الفعل، فلم يردِ النَّظم القرآنيُّ: (إنَّ الذين اتَّقوا) مثلًا؛ وذلك للإشارة إلى رسوخِ وصف التَّقوى فيهم، ودوامهم عليه، وعدم تذبذبه فيهم، وأنَّهم هم "الذين كانت التَّقوى شعارَهم، وطاعة اللّه تعالى دِثارَهم"[2].

المتَّقون مَن صارتِ التَّقوى شعارَهم، وطاعةُ اللّه تعالى دِثارَهم

نكتةُ حذفِ متعلّق التَّقوى:

حَذَفَ النَّظم الكريمُ متعلّق التَّقوى، ولم ينصَّ على أيِّ شيءٍ كانوا يتَّقون؛ لأنَّه من المعلوم بالضَّرورة أنَّهم "الَّذين اتَّقوا الشِّرك والكفر، أو اتَّقوا مخالفة اللّه على الإطلاق، عملًا وقولًا وفعلًا واعتقادًا"[3].

كُلَّما زاد امتثالُ المتَّقي؛ ارتَقَت درجَةُ تقواهُ

ولطيفة ذلك الحذف - إضافةً إلى العلم بالمحذوف - إفادةُ العموم والشُّمول لكلِّ ما يُخالف تعاليم الدّين الحقِّ من العقائد النَّقيَّة، والأخلاق السّامية، والآداب الرَّفيعة؛ ترغيبًا في التَّحلّي بما يُمكِن من كلِّ ذلك؛ عملًا بقوله ﷺ: «ما نَهَيتُكُم عَنهُ، فاجتنِبوهُ، وما أمَرتُكُم به، فافعَلوا منهُ ما استَطَعتُم»[4]، وكلَّما زاد امتثالُ المتَّقي؛ ارتقت درجةُ تَقْواهُ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ نكرةً:

لفظُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ معناه: "بساتينُ فيها عيونٌ جارية، لا يَبلغ وصفَها الواصفون"[5]، وفي اصطفاء مفردة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دون (حدائق) أو

وفرةُ أسبابِ النَّعيم وصنوفِ التَّكريم في الجنان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 87.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 809.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(4) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (1337).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.

(بساتين) وغيرهما: تنويهٌ بكثافة خُضرتها، وكثرة أشجارها وثمارها؛ حتّى إنَّها لتُجِنُّ مَن يدخلها وتُخفيه، و"لا تسمّى جَنَّة حَتَّى يُجنَّها الشَّجرُ، أي: يَسْتُرها هَكَذا"[1]، فإذا كان «كُلُّ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صورَةِ آدَمَ عليه السلام»[2]، وكانت تلك الـ ﴿جَنَّتٍ﴾ تُجِنُّه وتُخفيه، فكم يكون ارتفاعُ أشجارِها؟ وكثافة خُضرتها، وعلوُّ قُصورها؟ وذلك كنايَةٌ عمّا هنالك من وفرة أسبابِ النَّعيم، وصنوف التَّكريم.

ونُكِّرَ لفظُ ﴿جَنَّتٍ﴾؛ لإرادةِ التَّعظيم، يُقال: فلان رجلٌ، أي: عظيمٌ في الرُّجوليَّة[3]، وكذلك لتفخيم شأنِها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّها فوق تصوُّر العقول، «قالَ اللّه تعالى: أعدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا؛ إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]»[4]، فـ "لا يُبلُغ كُنهُها، ولا يقادر قدرها"[5].

لطيفةُ جمع ﴿جَنَّتٍ﴾:

جنّـةُ الخُـلدِ جنّـاتٌ لا يَحصرها عددٌ

جُمِعَ لفظُ ﴿جَنَّتٍ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرتها وتعدُّدها؛ إذ إنَّ الجنَّةَ مشتملةٌ على جنانٍ كثيرةٍ، فهي جنّاتٌ لا يَحصرها عدد، ثمَّ إنَّ الجنَّة عند الوَعد، وعند الشِّراء توحَّد، كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، وعند الإعطاء تُجمَع؛ إشارةً إلى أنَّ الزّيادة في الوعد موجودة[6]، والجمعُ على ﴿جَنَّتٍ﴾ يُنَبِّه على تنوُّع متاعها ونعيمها، فإنَّ الشَّجرة الواحدة بل الثَّمرة الواحدة فيها، تتنوَّع الألوانُ فيها، وتتعدَّد الطُّعوم، فتُعَدُّ ﴿جَنَّتٍ﴾ وحدَها.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جنن).
(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3326)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2841).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(4) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3244)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2824).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166 بتصرف.

معنى ﴿فِي﴾ في متعلّق الخبر ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾:

حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يُصَوِّر الجنّات في صورة ظرفٍ يحفَظُ المتَّقين، ويصونُهم، وأنَّهم يتقلَّبون ﴿فِي﴾ تلك الجنّات، ويتنزَّهون بين أشجارها، ويَقْطَفون مِن داني ثِمارها، وينزلون في غُرُفاتِها، فقد صارت لهم كالظَّرف المحيط بمظروفه الَّذي يصونه، ويحفظه، ويُؤْذِنُ بكونه شيئًا ثمينًا، يُضَنُّ به، فيُحفَظ، ويُصان، فقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ معناه: (بين جنّات وفي خلالها)؛ لأنَّ في الجنَّة أشجارًا، وإنَّما يكون المتَّقونَ بينها[1].

المتَّقون مكرَّمون في الجنّات بمنزلةِ الشَّيء الثَّمين يُحفَظ في ظرفٍ يصونُه

معنى (الواو) في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عاطفةٌ، تجمَعُ لِلمتَّقين إلى الجنّاتِ العيونَ، فـ "يكونون في الجنَّة، وينتفعون بالعيون"[2]، المفعمَةِ بالماء والعَسَل والخمر، وغيرها ممّا يعلمه اللّه تعالى من أنواعِ المَشْروب المعدِّ للمتَّقين هنالك ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلبِ بشَرٍ أيضًا.

اجتماعُ صُنوفِ النَّعيم لأهل التَّقوى

فيجتَمِعُ للمتَّقين أنواعُ المأكولات والفواكه، وكذلك كلُّ أنواعِ المَشْروبات ممّا كان حلالًا في الدُّنيا بطُعومه المختلفة، وممّا كان حرامًا فأحلَّه اللّه تعالى هنالك بمواصفات الطُّهر والنَّعيم اللّائق بـ ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ(عيون)، ولطيفةُ تنكيرها:

في التَّعبير بـ (عيون) دلالة على صفاء ما فيها من أنواع المشروبات، وأنَّها تفور من أعماق الجنَّة، ولا تَنضب، وقد جاء وصفُ بعضِها في سورة الرَّحمن، كما قال اللّه تعالى في الجنَّتين الأولَيَيْن: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمن: 50]، وجَرَيانُهُما دليلُ سَعَتِهما، وجمال منظرِهما، وانبعاث أسبابِ الحياة منهُما.

فخامةُ عيون الجنَّة وعظمةُ خصائصها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.

كما جاء في وصفِ عَيْنَي الجنَّتين الأُخْرَيَيْنِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن: 66]، فدلَّ على أنَّهما ينضخان الرّوائح العطِرَةَ، فعن أنس بن مالك ﷺ أنَّه قال: "تنضخان بالمِسك والعنبر، كما يَنْضَخ طيرُ الماء على بيوت أهل الدُّنيا"(1)، وتنضخان وتفوران بالخير، فيتقلَّب ماؤُهما وعسَلُهما وخمرهما فورانًا بديعًا يُسْعِد النّاظرين.

وتنكيرُ (عيون) يُضْفي عليها تفخيمًا في خصائِصِها، وأنَّها عيونٌ "سارِحةٌ، تَشرب منها تلك البساتين، ويَشرب بها عبادُ الله، يفجِّرونها تفجيرًا"(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالأخذ في قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾، ولطيفة صوغهِ اسمَ فاعل:

الله تعالى يُمَلِّك المتَّقين الجنّات تـمـلُّـكًـا غير مـسـتردٍّ، فهو تملُّك الخلودِ

التَّعبير بالأخذ في ﴿ءَاخِذِينَ﴾ يدلُّ على التَّملُّك؛ ولذا يقال: أخذ بلادَ كذا، وقلعةَ كذا؛ إذا دخلها مُتَمَلِّكًا لها، وفائدتُه: بيانُ أنَّ دخولَهم فيها ليس دخولَ مستعيرٍ أو ضعيفٍ يُسْتَرَدُّ منه ذلك، بل هو مِلكُه الَّذي اشتراه بماله ونفسِه من الله تعالى(3)، والسّياق يدلُّ على أنَّ هذا الأخذ والقبول يكون في الآخرة في جنّات النَّعيم، وأنَّهم هنالك "يتقبَّلون من ربِّهم ما يُساق إليهم من ألطافٍ، وما يُقدَّم إليهم من ألوانِ النَّعيم، ممّا لم يكن يخطُر لهُم على بالٍ، أو يقَع لهم في أحلام، وفي مدِّ الله ﷻ لهم يده الكريمة بهذا الإحسانِ، وفي تناوُلهم هذا الإحسانَ من رَبِّهم ما فيه مِن تكريمٍ لا يناله إلّا المقرَّبون، الَّذين ﷺ(4).

وهذا خلاف ما ذكره الطَّبريُّ مِن أنَّ المقصود بـ ﴿ءَاخِذِينَ﴾: عاملين ما أمرَهُم به ربُّهم مؤدّين فرائِضَه(5)، وهو ما ضعَّفه ابنُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 483.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 809.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 500.

كثير؛ لأنَّ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ "حالٌ من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمُتَّقون في حال كونهم في الجنّات والعيون آخِذون ما آتاهم ربُّهم، أي: من النَّعيم والسُّرور والغبطة"[1]، والأصل في الحالِ أن تكون مقارنةً لعاملِها زمنًا، وتأديةُ فرائض الله تعالى سابقةُ النَّعيمَ في الجنَّةِ.

وفي القيد بالحالِ دلالةٌ على دوام العطايا من الرَّبِّ الرَّحيم ﷻ لهم، ودوام الأخذ والاستبشار منهم، فهُم دائمًا آخذون، وأبدًا راضون، فإنَّها الجنّاتُ ونعيمُها، وإنَّه الله الكريم الغنيُّ، وإنَّها عطاياه، فاللّهمَّ لا تَحرمنا إيّاها يا كريمُ.

المؤمنُ الحقُّ يَستعمِل عطايا ربّه في وُجوهِ طاعَتِه

ومِن معاني ﴿ءَاخِذِينَ﴾، أي: قابلين ما آتاهُم ربُّهم في الدُّنيا من القُدرة والقوَّة والمال بحقِّ الله تعالى، والقيام بشُكْره والعبادة له والاستعمال في طاعته؛ لذلك قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، أي: قبِلوا ذلك بِحَقِّ الإحسان، فاستعملوها في حقِّ الله تعالى والقيام بطاعته؛ وهذا التَّأويل على التَّقديم والتَّأخير، والتَّقدير: إنَّ المتَّقين في جنّات وعيون، إنَّهم كانوا قبل ذلك مُحْسِنين، آخذين ما آتاهم ربُّهم، أي: إنَّما نالوا الجنَّة؛ لِما أنَّهم كانوا في الدُّنيا كذلك[2].

دلالةُ جمع ﴿ءَاخِذِينَ﴾، ولطيفة صوغهِ اسمَ فاعلٍ:

المتَّقون في الجنَّة يَهنَؤون بين الأحبَّة، فتكتمِلُ السَّعادة باجتماعِهم

في جمع ﴿ءَاخِذِينَ﴾ إشارةٌ إلى هناءَة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بين الجماعةِ، جماعةِ الأهل والأرحام، وجماعةِ الأصدقاء والأقرباءِ، فهَكذا السَّعادة لا تَكتَمِل إلّا بجَمعِ الأحبَّة، وفي صوغه اسمَ فاعلٍ دلالَةٌ على الدَّوام والاستمرارِ[3].

بلاغةُ الكناية في ﴿ءَاخِذِينَ﴾:

يقول الطّيبي: "فُسِّر الأخذُ بالقبول والرِّضا؛ لأنَّ لفظَ الأخذِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 416.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 14.

فيه دلالة على أنَّ المطلوب مرغوبٌ فيه، وفيه تلويحٌ إلى ما ورد عن الصّادق المصدوق أنَّ الله ﷺ يقول لأهل الجنَّة: «يا أهلَ الجنَّة، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسَعدَيك، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا، وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِ أحدًا مِن خَلْقِكَ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيء أفضل؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»[1].

ما يُؤتاه المتَّقون من أنواع الكرامات هو الأكملُ في جِنْسِه

شُبِّه حُلول الرِّضوان على السُّعداء وقابليَّتُهم إيّاه - وهو معقول - بإعطاء ما يَتناولون باليد - وهو محسوس - مبالغةً في الحصول، وتصويرًا لحالة الأخذ والإعطاء"[2]، فكنايتُه رمزيَّةٌ عن كون ما يُؤتَونَه أكملَ في جنسه؛ لأنَّ مدارك الجماعات تختلف في الاستجادة، حتّى تَبْلُغ نهاية الجودة، فيستوي النّاس في استجادته، وهي كنايةٌ تلويحيَّة، ويحتمل أن يكون استعمالُ الأخذ في حقيقَتِه؛ لأنَّ بعضَ ما يُؤْتيهم الله ممّا يُتناول باليدِ، كالفواكه والشَّراب والرَّياحين، ويحتمل المجازَ من حيثُ إنَّ بعض المُعْطى لا يُتناول باليدِ، كالمناظِر الجميلة، والأصوات الرَّقيقة، والكرامة والرِّضوان، وذلك أكثرُ من الأوَّل، فاجتمع في لفظ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ كِنايَتان ومجازٌ[3].

علَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَآ﴾:

عطايا الله تعالى في الجنَّة لا عدَّ لها ولا وصفَ يوفّيها

في التَّعبير بالموصول ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ - أي: "ما أعطاهم ربُّهم من الخير والكرامة"[4] - دلالة على كثرة ما آتاهم ربُّهم الكريم سبحانه، ممّا لا يتَّسع المقامُ لتَعْديده، كما لا تطيق اللُّغة، ولا يطيق تصوُّر المُتَلَقّي تفصيلَه، فلا يصلح

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (6549)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2829).
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 347.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 175.

الاسمُ الصَّريح، بل لا يوجد اسمٌ صريح يَحتمل ما تحتمله ﴿مَآ﴾ هنا، وعلى ذلك فهي أداةُ تهويلٍ وتفخيمٍ وتعظيمٍ.

سرُّ إيثار فعل الإيتاء في ﴿ءَاتَىٰهُمۡ﴾:

كـرامـات الـلـه تعالى في الآخرة لا تكلُّفَ فيها ولا معاناة

في التَّعبير بفعل الإيتاء في جملة: ﴿ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ دليلُ الإكرام والحَفاوة؛ "لأنَّ أخْذَهُم ذلك لم يكن عنوةً وفتوحًا، وإنَّما كان بإعطاء الله تعالى"[1]، فلم يَدَعْهُم تعالى يتكبَّدون عناء الذَّهاب إلى حيث تلك المكرُمات؛ ليَتَسَلَّموها، بل هو سبحانه الَّذي آتاهم إيّاها، وأوصلها إلَيْهِم بأمره (كنْ)، أو بتكليفِ الملائكة الكرام، أو بوسائلَ خاصَّةٍ هنالك ممّا يدخُلُ تحت قوله: «ما لا عين رأت...»، فالإيتاء يعني الإعطاءَ وزيادة، وهو توصيلُ المعطَى إلى المعطَى له، وتمليكه إيّاه، وثباته عنده، وعدم انتقالِه عنه، و"الإيتاء: أقوى من الإعْطاء... لأنَّ الإيتاء في أكثر مَواضِع القُرآن فيما له ثبات وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والملك الَّذي لا يُؤْتى إلّا لذي قوَّة"[2].

سرُّ صوغ فعل الإيتاء ماضيًا:

تحقُّقُ وعدِ الله تعالى للمتَّقين

المناسب في الظّاهر لقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ أن يُقال: آخذين ما يُؤْتيهم؛ لأنَّ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ، وهو في معنى قول القائل: (يأخذون)، لكنَّه قال: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمۡ﴾ دون: ما يؤتيهم؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم يتملَّكون ما أعطاهم، وقد يوجد الإعطاء أمس، ويُتَمَلَّك اليومَ، أو أنَّ الله تعالى أعطى المؤمن الجنَّة، وهو في الدُّنيا، غير أنَّه لم يَكُن جَنَى ثمارَها، فهو يَدْخُلها على هيئةِ الآخذ، وربَّما يأخذُ خيرًا ممّا آتاه، ولا ينافي ذلك كونه داخلًا على تلك الهيئة، كقول القائل: جئتُك خائفًا؛ فإذا أنا آمن[3]، ففي المُضيِّ إشارةٌ إلى تحقُّق الوقوع، فإنَّه سيُؤتيهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 212.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.

حين يُدخلهم الجنّات في الآخرة قطعًا، ويَزيد المُتَّقين طمأنينةً إلى أنَّ تلك المكرُمات في علم الله تعالى قد أوتوها.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

إيمانُ المؤمنين بربوبيَّته ﷻ أورَثَ اختِصاصَهُم بكراماتِه

في إيثار التَّعبير عن الله سُبحانَهُ بوصف الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الإشارةُ إلى اختصاصِهم بالكرامة، والإيماء إلى أنَّ سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيَّته المختصَّة بهم، وهي المطابقة لصِفات الله تعالى في نفس الأمر[1]، فإيتاءُ ربِّهم سُبحانه إيّاهم ما آتاهم، عطاءٌ كريم، ورحمةٌ عظيمة، اقتضت إسناد إيتائها إلى عنوان الرُّبوبيَّة، وأنَّهُ عطاء جزيلٌ ورحمةٌ كبيرة، لا تكون إلّا مِن ربِّهم الكريم ﷻ.

جِرمانُ أهلِ الكُفرِ مِن إحسانِ الله تعالى في الآخرَة

وإضافةُ لفظِ (ربّ) إلى ضمير المتَّقين في ﴿رَبُّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى هو المحسِنُ إليهم في الآخرة وحدَهُم، أمّا الكافرون الَّذين كانوا يشاركونهم في الدُّنيا في ربوبيَّته ﷻ؛ فقد حُرِموا يومها من آثارِ تلك الرُّبوبيَّة، ربوبيَّةِ الرَّحمة والرِّضوان والإكرام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: 32]، والحاصلُ أنَّ في الإضافةِ في ﴿رَبُّهُمْ﴾ مزيدَ تكريم وتشريفٍ، وتطمينٍ للمُتَّقين.

علَّة فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ عمّا قبله:

مآلُ الإحسانِ في الدُّنيا نيلُ الكَرامات في الآخِرَة

فُصل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه تعليلٌ له[2]، وبيان للأسباب والوسائل الَّتي توسَّل بها هؤلاء المُكَرَّمون من عباد الله، إلى هذا النَّعيم العظيم الَّذي هم فيه[3]، فكونهم في الدُّنيا محسنين سببٌ في إكرامهم بجنّات وعيون آخذين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.

ما آتاهم ربُّهم، وهكذا هي الرَّوابط القرآنيَّة بين الجمل والتَّراكيب متينةٌ، ممّا يجعل القرآنَ الكريمَ كلَّه سياقًا متَّصلًا وثيقًا.

معنى (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ﴾:

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي تقرِّر أنَّ العمل الصالح مُهِمٌّ في بناء المستقبل الآمن والعطاء العظيم والجزاء الجزيل عليه؛ وذلك حتّى لا يتواكل المسلم، ويتوهَّم صفاء عقيدته وتَطامُن قلبه إلى (لا إله إلا الله)، وهو لا يعمل، فإنَّ مِن مقتضياتها العملَ الصّالح، ومجانبة نواقضها من تضييع الحقوق، وإهدار الأعمار فيما لا ينفع.

مِن مقتضيات (لا إله إلا الله) العملُ الصّالح، ومجانبة نواقِضها

وفي (إنَّ) معنى التَّعليلِ، وأنَّ ما نالوه مِن الكرامة في الآخرة إنَّما كان بسبب أعمالهم الصّالحةِ الجليلةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون، ودلالةُ صوغه ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعةِ:

في التَّعبير بفعل الكون الماضي في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى انصرام الدُّنيا وذهاب التَّعب وبقاء الأجر، كما أنَّ دنيا الكفّار قد انصرمت، وذهبت راحتها، وبقي الوزر، كما قال العلماء: "تصوَّر دائمًا ذهابَ لذَّة المعصية وبقاءَ عقابها، وذهابَ ألَمِ الصَّبر عنها وبقاءَ الثَّواب عليه"[1].

المعصيةُ تذهبُ لذَّتُها، ويبقى وِزْرُها، والطّاعة تَذْهَب مشقَّتها، ويبقى ثوابُها

فَفِعْلُ الكون في قوله: ﴿كَانُواْ﴾ "يدلُّ على أنَّ خبرها سنَّة متقرَّرة"[2]، وهكذا يطوي فعلُ الكون إشاراتٍ جليلةً.

وفي إسنادِ فعل الكَوْنِ إلى واو الجماعَةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا صنيعُ جميعِ المتَّقينَ؛ إذ لفظُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جمعٌ، والواو دالَّةٌ على الجَمعِ، والقاعدةُ المتقرِّرة عند أهل العلم: أنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسمَةَ آحادًا، أي: إنَّ هذا المذكور شأنُ كلِّ مُتَّقٍ لله تعالى.

(1) الطنطاوي، مع الناس، ص: 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.

فائدةُ التَّعبيرِ بظرف القَبليَّة في قوله: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾:

تحصيلُ الجِنان في الآخرة يكونُ بِتَقْديمِ العملِ الصّالح في الدُّنيا

مِن براعة التَّركيب هنا ذِكْرُ ظرف القبليَّة في القيد ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّه يَدْعَمُ عطاء المُضيِّ في فعل الكون ﴿كَانُوٓاْ﴾، ويقرِّر أنَّ ذلك المذكورَ في القيد - قبل ذلك الإيتاءِ والإكرام في الدّار الدُّنيا، كقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: 24][1] - متوقِّفٌ على إحسانِهم قبلُ، وأنَّه دون كون إحسانهم قبل ذلك، لا يكون الجزاءُ العظيمُ أصلًا.

ومِن "فائدة الظَّرف في قوله: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أن يُؤتى بالإشارة إلى ما ذُكِر من الجنّات والعيون، وما آتاهم ربُّهم ممّا لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيحصل بسببِ تلك الإشارة تعظيمُ شأن المُشار إليه، ثُمَّ يُفاد بقوله: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل التَّنعُّم به أنَّهُم كانوا محسنين، أي: عاملين الحسناتِ، كما فسَّره قولُه: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الآياتِ، فالمعنى: أنَّهم كانوا في الدُّنيا مطيعين للّه تعالى، واثقين بوعده، ولم يَرَوْه"[2]، وفيه إشارة إلى أنَّهم أخذوا الجنَّة، ومُلِّكوها بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26] بِلام المِلك، وهي الجنَّة[3].

بيانُ مرجِع الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ البُعد فيها:

أصولُ الأتقياءِ مبنيَّة على النَّقاءِ

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ تعود إلى ظفَرهم بالجنّات والعيون، أي: كانوا "قبلَ دخولِ الجنَّة، وهُم في دارِ الدُّنيا[4]، أو قبلَ أن يُفرض عليهم الفرائض، كانوا للّه قبل ذلك مُطيعين[5]، محسنين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 373.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 501.

في أعمالِهم[1] مِن فِعْل ما أُمِروا به، وتَرْك ما نُهوا عنه[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ طبائعَ أصولِ الأتقياءِ النُّقاءُ، وأنَّهم مستعدّون بالفِطرة لعمل الخير قبل التَّكليف.

والتَّعبير عن النَّعيم القريب الَّذي آتاهم ربُّهم بإشارة البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ صريح في بيان بُعده في مراقي الشَّرف والعزَّة في الجنَّة والتَّنبيه على ذلك الرُّقيِّ؛ لكونه عطاءَ الرَّبِّ الرَّحيم الغنيِّ الكريم الموسوم ببُعْدِ المنزلة وسُموِّ الشَّرَف والتَّشريف.

نكتةُ تقديم القيد ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿مُحْسِنِينَ﴾:

نيلُ الإحسانِ في الآخرة مُرَتَّب على فِعْله في الدُّنيا

في تقديم شِبه الجملة من الظَّرف والمُضاف إليه ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿مُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ واضح على دَوْر تلك القَبْليَّة - قبليَّة الإحسان - في نوال ذلكَ التَّكريم، وأنَّ مناط الظَّفَر به معلَّق على تقديمِ الإحسان، وفِعله في دار العمل لِنَيْلِه في دار الجزاء.

دلالةُ التَّعبير بالإحسان، ولطيفةُ صوغه اسمَ فاعل:

الإحسانُ درجةٌ في سُلَّم الارتقاء إلى درجة التَّقوى

في الإخبار عن المتَّقين بالإحسانِ خاصَّة بيانٌ لمنزلةِ الإحسان في الوصول إلى درجة التَّقوى، التي هي سُلَّم الرُّقيِّ إلى نعيمِ الجنان.

والإحسان ما جاءت بتفاصيله الآياتُ الثَّلاث: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، وما جاء في حديث جبريل ﷺ: «أنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإن لَم تَكُنْ تَراهُ؛ فَإنَّهُ يَراكَ»[3]، فهذا يُمَثِّل الإحسانَ فيما يخصُّ علاقة العبدِ باللَّه ﷻ، أمّا ما يُمَثِّل الإحسانَ فيما يخصُّ العلاقةَ بالنّاس، فيوَضِّحه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: 134]، وفي صوغ الخبر ﴿مُحْسِنِينَ﴾ اسمَ فاعِلٍ دلالَةٌ على

(1) الواحدي التفسير، الوسيط: 4/ 175.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.
(3) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (8).

أنَّ المتَّقين كانوا مقيمين على ذلك الإحسان دائبين عليه خُلُقًا دائمًا لهم، ووصفًا ثابتًا لا يتذبذب، ولا ينقطع فيهم؛ إذ ترسَّخ فيهم خُلُقًا أصيلًا ثابتًا، متينًا مكينًا.

نكتةُ حذْف متعلّق الإحسان في الخبر ﴿مُحْسِنِينَ﴾:

عـمـومُ إحْـسـانِ المتَّقين

سكت النَّظم الكريم عن متعلِّق الإحسان، والمعنى: أنَّهم كانوا مُحْسنينَ "لأعمالِهم الصّالحةِ، آتينَ بِها عَلى ما ينبغي؛ فلذلكَ نالوا ما نالوا مِنَ الفوزِ العظيم"[1]، ومن لطائف حذف هذا المتعلِّق إفادةُ العموم - عموم إحسانهم - جوانبَ حياتِهم كافَّةً، مِن عباداتٍ ومعاملات، وأخلاقٍ، وآدابٍ، وغير ذلك.

علَّة فصل قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾ عمّا قبلهُ:

في قـيـام اللَّـيـل تزكية النَّفس، وفي الاستغفار تـزكـيـةُ الـظّـاهـر بالأقوال الطَّيِّبة

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ عن قول الله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ قبله؛ لكمالِ الاتِّصال بينَهُما؛ إذ فُسِّر إحسانُهُم المذكورُ قبلُ بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾[2]، أو هوَ "بدلُ بعضٍ مِن كلٍّ منه؛ لأنَّ هذه الخصال الثَّلاث هي بَعضٌ من الإحسان في العمل، وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم، فإنَّ ما ذُكر من أعمالهم دالٌّ على شدَّة طاعتهم لله تعالى ابتغاء مرضاته ببذل أشدِّ ما يبذل على النَّفس، وهو شيئان، أوَّلهما: راحةُ النَّفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الرّاحة، وهو اللَّيل كلُّه، وخاصَّةً آخره؛ إذ يكون فيه قائمُ اللَّيل قد تعبَ، واشتدَّ طلبهُ للرّاحة. وثانيهما: المالُ الَّذي تَشِحُّ به النُّفوس غالبًا، وقد تضمَّنت هذه الأعمالُ الأربعة أصلَ إصلاح النَّفس وإصلاح النّاس، وذلك جِماع ما يَرْمي إليه التَّكليف من الأعمال، فإنَّ صلاح النَّفس تزكيةُ الباطن والظّاهر، ففي قيام اللَّيل إشارة إلى تزكية النَّفس باستجلاب رضا الله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 398.

تعالى، وفي الاستغفار تزكية الظّاهر بالأقوال الطَّيِّبة الجالبة لمرضاةِ الله ﷻ"[1].

سرُّ تكرار فعل الكونِ الماضي في ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾:

أثرُ أفعال الدُّنيا في تحديدِ جزاء الآخرة

في تَكرار فعل الكونِ الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ إلحاح على التَّنبيه إلى أثر أفعالِ الدُّنيا في تحديد جزاءِ الآخرة، فهؤلاء المُتَّقون كانوا، وكانوا... ممّا هيَّأهم لذلك الَّذي هُم فيه الآنَ مِن ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾، وفي تَكرار فعل الكون الماضي كذلك لَفْتٌ إلى ذهاب تعَبِ الطّاعة وبقاء أجْرِها.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿قَلِيلًا﴾، ولطيفة تنكيره:

الصَّلاة والاستغفار باللَّيل مِن صفاتِ المُحسنين

وَصف الله ﷻ المتَّقين بأنَّهم كانوا قليلًا من اللَّيل ما يَهْجعون؛ مَدْحًا لهم، وثناءً عليهم به؛ لما اتَّسموا به من كثرة العمل، وسَهَرِ اللَّيل، ومكابدته فيما يُقَرِّبُهم منه، ويُرضيه عنهم[2]، فـ ﴿قَلِيلًا﴾ في جملة: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ وصفٌ لِجُزء زمن محذوف، أي: كانوا يهجعون وقتًا أو جزءًا قليلًا من اللَّيل؛ إذ "يكابدون العبادة في أوقات الرّاحة وسكون النَّفس، ولا يستريحون من مشاقِّ النّهار إلّا قليلًا"[3]، و"المراد: من كلِّ ليلة"[4]، فصار ﴿قَلِيلًا﴾ في محلِّ الظَّرف، وأخَذَ حُكْمَه، والزَّمن - في الأصل - يوصف بالقِصر والطّول لا بالقلَّة والكثرة، وعلى ذلك فوصفُ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا يُلمح إلى قلَّة هجوع المحسنين، وقلَّة ركونهم إلى الرّاحة.

وفي "تقييد الهجوع بالقليل إشارةٌ إلى أنَّهم لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع، بل يأخذون منه قليلًا، وهذه الخصوصيَّة فاتت أبا قيس بن الأسلت في قوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 509.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 9.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.

قد حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأسي فَما *** أطْعَمُ غُمضًا غَيْر تَهْجاعِ[1]

ففي الآية مبالغةٌ في تقليل هجوعهم؛ لإفادة أنَّه أقلُّ ما يَهْجَعه الهاجع"[2].

القليلُ قد يُعبَّرَ به عن النَّفي

وكما يصحُّ أن يكون المعنى: كان هُجوعُهم قليلًا من أوْقات اللَّيل، فيجوز أن يكون معناه: لم يكونوا يَهْجَعون، فالقليل قد يُعبَّر به عن النَّفْي والمُشارِفِ لِنَفْيه[3]، كما يُقال: فلانٌ قليلُ الحياء، أي: لا حياءَ له[4].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

ركـون المحسنين إلـــى الـرّاحـــة والاســـترخـــاء قصيرٌ لا يطولُ

﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تبعيضيَّة، تدلُّ على أنَّ هُجوعهم وركونهم للرّاحة والاسترخاء لا يعدو كونَه جزءًا يسيرًا قصيرًا من اللَّيل، كما قال تعالى يصف عبادةَ خاتم المُرسلين ﷺ: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المزمّل: 20].

ويفيد ذلك – بمفهوم المُخالفة – أنَّ قيامهم من اللَّيل في العبادة كان بَيْنَ يَدَي الله تعالى طويلًا، وكثيرًا من العبادة كانت تشغلهم، وتعمر أوقاتَهم الطَّويلة.

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

ليالي المحسنين كـلُّـهـا عـامـرة بالطّاعات

(أل) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تستوعب كلَّ ليل المحسنين، فتعني اللّيالي كلَّها، فظاهر الآية يُفصح عن أنَّهم كانوا يقومون الأكثر من لَيْلِهم، أي: من كلِّ ليلة[5]، فكلُّ ليلهم مباركٌ بالطّاعات، عامرٌ بالقربات، ليلٌ جدير بوصف اللَّيليَّة الهادئة، الخالية من شَغَب الحياةِ وصخبِها.

(1) ديوان صيفي بن الأسلت، ص: 78، ط، دار التراث.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في هجع).
(4) الجاحظ، الحيوان: 2/ 371.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.

بلاغةُ الكناية بذِكْرِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

اللَّـيـل أصـفى للعبادة

في تخصيص ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ بالذِّكر هنا كنايةٌ عن عمارة النَّهار بالعمل الصّالح، المتعدّي خيرُه مِن بابٍ أولى؛ لأنَّهم إذا كانوا يَعْمُرون اللَّيل بالعبادة ولا ينامون - و"اللَّيل وقت السُّبات والرّاحة"[1]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠﴾ [النبأ: 10] - فعمارتُهُم النَّهار بذلك أولى وأحْرى.

ثُمَّ إنَّ اللَّيلَ أسترُ على العُبّاد، وأصفى للعبادة، وأنزل للرَّحمات والبركات، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦﴾ [المزمل: 6]، فـ "تركوا النّوم في الوقت الّذي من شأنه استدعاء النُّفوس للنَّوم فيه؛ زيادةً في تصوير جلال قيامهم اللَّيل، وإلّا فإنَّ قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ يفيد أنَّه من اللَّيل"[2].

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَهۡجَعُونَ﴾:

في اصـطـفـاء (مـا) إشـارة إلى عظيمِ خَشْيَتِهم وعـدمِ اغتِرارهم بعبادتهم

﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ تحتمل ثلاثةَ توجيهاتٍ، ولكلٍّ منها عطاؤها الدَّلالي البارع، فتحتمل المصدريَّة، ويكون المعنى: كانوا قليلًا من اللَّيل هجوعهم، وتحتمل الموصوليَّة، ويكون المعنى: كانوا قليلًا الوقت الذي يَهْجَعونَه، ويهجعونَ فيه، وتحتمل أن تكون صلةً للتَّأكيد، فيكون المعنى: كانوا قليلًا من اللَّيل يهجعون على وجهِ القَطْعِ والجَزْمِ؛ وذلك لأنَّ (ما) شاع زيادَتُها بعد اسم (قليل) و(كثير)، وبعد فعل (قلَّ) و(كثُر) و(طال)، فأفادت ﴿مَا﴾ تلك الدَّلالات، ولا مانعَ من اجتماعِ هذه الدَّلالاتِ، فتكون ﴿مَا﴾ مفيدَةً دَفعةً، ولخصَّتها في لفظٍ يسير، وفيه "إشارةٌ إلى مزيد خَشْيَتِهم وعدم اغترارهم بعبادتهم"[3]،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 398.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 10.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ وجه النَّفي في ﴿مَا﴾ ممتنع ههنا على معنى: أنَّهم لا يهجعون من اللَّيل قليلًا، ويُحْيونه كلَّه؛ لأنَّ ما النّافية لا يعمل ما بعدَها فيما قبلها، تقول: زيدًا لم أضرب، ولا تقول: زيدًا ما ضربتُ[1]، فضلًا عن أنَّ المعنى يأباه؛ إذ يتَنافى مع الدَّوام على القيامِ الَّذي اشتُهروا به، فذلك ممّا لا يستطيعهُ بشر.

نكتةُ العدولِ عن ذِكْرِ قيام اللَّيل إلى قِلَّة الهجوع باللَّيل:

النَّظم الكريم يغوص على مكامنِ النُّفوس في المعالجة

عدَلَ النَّظم الكريم عن التَّعبير بقيام المُحْسِنين اللَّيل - فلَم يقُل: كانوا يقومون اللَّيل، أو كانوا يُصلّون في جوف اللَّيل - إلى التَّعبير بقلَّة هُجوعهم، فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، وذلك "لأنَّ في ذِكْرِ الهُجوع تذكيرًا بالحالِ الَّتي تَميل إليها النُّفوس، فتغلبها، وتَصْرِفها عن ذِكْرِ الله تعالى، وهو من قبيل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16]، فكان في الآية إطنابٌ اقتضاه تصويرُ تلك الحالِ، والبليغ قد يورِدُ في كلامه ما لا تتوقَّف عليه استفادة المعنى؛ إذا كان يَرْمي بذلك إلى تحصيلِ صوَرِ الألفاظ المزيدة"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بمفردة الهجوع، ودلالةُ صَوْغِها فعلًا مضارعًا:

نومُ المحسنين يحتسبونَهُ عِند الله تعالى

مَدَحَ الله تعالى المحسنين بِقلَّة الهجوع، ولم يَمدَحْهُم بكثرة السَّهر، فما قال: كانوا كثيرًا من اللَّيل ما يَسهرون، مع أنَّ السَّهر هو الكُلْفة والاجتهاد لا الهجوع؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ نومَهُم يحتسبونَ فيه الأجرَ والثَّوابَ؛ إذ مَدَحَهُم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلًا، وذلك الهُجوع أورثهم الاشتغالُ بعبادة أخرى هي الاستغفار في وُجوه الأسحار، ومنعهم مِنَ الإعجاب بأنفُسِهم والاستكبار[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 38.

ففي التَّعبير بقلَّة الهجوع دلالةٌ على أنَّه كان من إحسانهم أنَّهم يذكرون ربَّهم لا يكادون يَغفُلون عن ذكره، ولا يعطون أنفُسَهُم حظَّها من النَّوم[1].

لطيفةُ تقديمِ الخبر ﴿قَلِيلًا﴾ والقيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ على بدل اسم كان:

تنويهُ الله تعالى بأعمالِ المحسنين وإكرامُهُ إيّاهم باجتِهادهم

قُدِّم الظَّرف والجارُّ والمجرور ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ على بدل اسم كان؛ إذ إنَّ تقدير الجملة بعد التَّأويل وإعادة التَّرتيب بحسب القواعد: كانوا هجوعُهم - أو الوقتُ الَّذي يهجعونه - قليلًا من اللَّيل.

وفي ذلك التَّصرُّف بالتَّقديم إشادةٌ باجتهادهم في العبادة؛ إذ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ وقت النَّوم، والسُّكون والرّاحة بعد نهارٍ مليءٍ بأعباءِ العمل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾ [المزمل: 7]، فهذا اللَّيل كذلك عَمَروه بالاجتهاد من القيام والتَّهجُّد والذِّكر والاستغفار وتحصيل العلم، والتَّدبُّر في قرآنه الكريم، ونحو ذلك مِن صنوفِ الطّاعاتِ وضروبِ العباداتِ.

ففي تقديم ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تسجيلٌ للرِّضوان، وإشادة بالجهود، وتعريفٌ بسبيل المتَّقين، وتبيينٌ لمنهج حياتهم الَّذي بلغ بهم مرحلة التَّقوى والإحسان.

وبتقديم قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ يكون السّابق إلى الفهم قلَّة الهجوع؛ لأنَّ الغرض بيان قلَّة الهجوع، لا بيان الهجوع بوصفِ القلَّة أو الكثرة، وهذه الفائدةُ مَن يُراعيها يقول: فلان قليلُ الهجوع، ولا يقولُ: هجوعُه قليل[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

طاعاتُ المحسنين كثيرةٌ ومنوَّعة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ عاطفة؛ إذ تجمَع للمحسنين هذين الخَيرين: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، (بالأسحار هم يستغفرون)، وتُبيِّن نَوع العبادة الَّتي كانوا يَختصّون

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 167.

بها أواخر اللَّيل، ويختمون بها عباداتِهم قُبَيل طلوع الفجر، وأنَّها كانت عبادةَ الاستغفار.

معنى (الباء) في قوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾:

المحسنون يستعينون بصفاء الأسحارِ على العبادةِ والاستغفار

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بمعنى (في)، أي: وفي وقت الأسحارِ هُم يستغفرون، ومِن لطائف إيثار (الباء) على حرف الظَّرفيَّة الصَّريح (في) التَّنبيهُ إلى أثر صفاءِ الأسحار، وخلوص النُّفوس المؤمنة فيها في ميدان التَّقوى، والمعنى: أنَّهم كانوا مستعينين بالأسحار على طلَبِ الغفران، ففيها معنى الاستعانة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ [الإسراء: 79].

كما أنَّ في (الباء) هنا معنى الملابَسَة، أي: إنَّهم مُتَلَبِّسون بالاستغفار في هذا الوقت الصّافي، وعلى ذلك؛ فالباءُ هنا تَضْمينيَّة، تُضمِّن فعلَ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ معانيَ الأفعالِ: يستعينون، ويتلبَّسون، إلى غير ذلك.

معنى (أل) في ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾:

عبادةُ آخِر اللَّيل أفضلُ مِن العبادة أوَّله

(أل) في ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ لتعريف الجِنْس والاستغراق، أي: إنَّ المُحْسِنين في جميع الأسحارِ يَنْشَطون بالعبادة وطلبِ الغفران، ولا يركنون إلى الرّاحة والخُلود إلى النَّوم مثل عامَّة النّاس.

دلالةُ جمع (الأسحار) جمعَ قلَّة:

أوقات المحسنين متفرِّدة متميِّزة عن أوقات غيرهم

(الأسحار) جمعُ: السَّحَر، و"السَّحر هو السُّدس الآخر من اللَّيل"[1]، و"جُمِع (الأسحار) باعتبار تَكرُّر قيامِهم في كلِّ سَحَر"، أي: إنَّهم كانوا يستغفرون في الأسحار كلِّها[2]، وفي جَمعِها جمعَ قلَّة تنويهٌ بأسحارهم هُم بخاصَّة، وتميُّزها، وتفرُّدها من بين أسحار الخلقِ جميعًا.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 511.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

نكتةُ تقديم القيد (بالأسحار) على ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

يـعـظُـمُ قـدرُ الـعـبـادةِ مِـن متعلّقاتِها

كلُّ الموحِّدين يشتركون في استغفارهم الله تعالى، ويتعلَّقون بهذا الرَّجاء، ولكنَّ الشَّأن فيمن يفكِّر في ذلك في أوقات راحةِ النّاس وهَجعتهم، وأولئك هم المتَّقون المحسنون، ففي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور (بالأسحار) على جملة: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تنويهٌ بشأن مَن يَعمرون هذا الوقت بالعبادة، فقد قال رسول الله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنا ﷻ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّماءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقولُ: مَنْ يَدْعوني؛ فَأَسْتَجيبَ له، مَنْ يَسْأَلُني؛ فَأُعْطيَهُ، مَن يَستَغْفِرُني؛ فَأَغْفِرَ له»[1]، ففي "تقديم (بالأسحار) على ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ اهتمام به"[2] لذلك.

نكتةُ تقييدِ استغفار المحسنين بالأسحار:

المحسنون يرون أنَّ عباداتِهم - مع كثرتها وتنوُّعها - تحتاج إلى استغفارٍ

في تقييد استغفار المحسنين بـ (الأسحار) تنبيهٌ على متعلِّق الإحسان في هذا الاستغفار؛ لأنَّ "أرجى وقتِ الاستغفار وقتُ السَّحر"[3]، وإلّا فعامَّةُ المسلمين يستغفرون الله ﷻ، ولأنَّ (الأسحار) "مظنَّةُ الاستغفار، ويُروى أنَّ أبواب الجنَّة تُفتح سحَر كلِّ يوم، وفي قصَّة يعقوب ﷺ في قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: 98]، قال: أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحر"[4].

وتقديم (الأسحار) يوحي - أيضًا - بأنَّهم بلغوا من التَّقوى مبلغًا يرون فيه عبادتهم اللَّيل كلَّه تقصيرًا يستوجب الاستغفار، وأنَّهم "مع قلَّةِ هُجوعِهم وكثرةِ تهجُّدِهم يداومونَ على الاستغفارِ في الأسحارِ، كأنَّهم أسلفوا ليلهم باقترافِ الجرائم"[5]، "فإذا آذَنَ اللَّيل

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1145)، ومسلم في صحيحه، رقم: (758).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

بالانصرام؛ سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قَدَّموا من التَّهجُّد ما يرجون أن يُزْلِفَهم إلى رضا الله تعالى، ودلَّ هذا على أنَّ هُجوعَهُم الَّذي يكون أثناء اللَّيل قبل السَّحر، فأمّا في السَّحر؛ فهُم يتَهجَّدون، ولذلك فسَّر ابن عمر ومجاهد الاستغفارَ بالصَّلاة في السَّحر.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 17]، وليس المقصودُ طلبَ الغفران بمجرَّد اللِّسان، ولو كان المستغفرُ في مَضْجَعِه؛ إذ لا تظهر حينئذٍ مزيَّةٌ؛ لتقييد الاستغفار بالكون في الأسحارِ"[1].

بلاغةُ تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ:

في بناء جملة: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قَصْرُ تلك الفضيلة عليهم؛ إذ هم بِخاصَّة مَن وفَّقهم الله تعالى إلى قيام اللَّيل حتّى أدركهم السَّحر، فختموها بالاستغفار.

المحسنون هم الأحِقّاء باستغفار الأسحار المكَرَمون به دون المصرّين

و"فيه أنَّهم هم المستغفرون الأحِقّاء بالاستغفار دون المُصرّين، فكأنَّهم المختصّون به؛ لاستدامتهم له وإطنابهم فيه"[2]، وفيه كذلك "إظهارُ الاعتناء بهم، وليَقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعليِّ، فيُفيد تَقَوّي الخبر؛ لأنَّه من النُّدْرة بحيث يقتضي التَّقوية؛ لأنَّ الاستغفار في السَّحَر يَشُقُّ على مَن يقوم اللَّيل؛ لأنَّ ذلك وقت إعيائه"[3].

ووجه تقويةِ الخَبَرِ ما في الجملةِ مِن تكرار الإسناد، فإنَّ الاستغفارَ مُسنَدٌ إلى الضَّمير المنفصلِ ﴿هُمْ﴾، ومسنَدٌ أيضًا إلى الضَّمير المتَّصل، وهو واوُ الجماعةِ، وتكرارُ الإسنادِ مِن مقوّياتِ الجُمَلِ ومؤكِّداتِها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

دلالةُ التَّعبير بالاستغفار في قوله: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

الاستغفارُ جزءُ الصَّلاة المُهِمُّ في التَّهجُّد

الاستغفارُ: طلب الغفران من الغفّار ﷻ، وطَلَبُ هؤلاء المتَّقين المحسنين المغفرةَ في أسحارهم بعد قيام اللَّيالي الطَّويلة العامرة بصُنوف العبادةِ دليلُ رقَّة قُلوبهم ونَقاء نفوسِهم وصِدْقِ يَقينِهم، وتمام خشيتهم من الله تعالى، و"الاستغفارُ يَحْتَمِل طلبَ المغفرة بالذِّكر، بِقَولِهم: ربَّنا اغفر لنا، وطلبَ المغفرةِ بالفعل، أي: بالأسحارِ يأتونَ بفعلٍ آخرَ طلبًا للغُفران، وهو الصَّلاة، والأوَّل أظهَرُ، والثّاني عند المُفَسِّرين أشهر"[1].

فإن أُريد به الصَّلاة؛ فيكون "سِرُّ التَّعبير عن الصَّلاة بالاستغفار الإشارةَ إلى أنَّه رُكْنُها المُهِمُّ في التَّهجُّد، بل وفي غيره، فيكون من إطلاق الجُزء على الكلِّ، وقد ذُكِر في أذكار الصَّلاة الاستغفارُ في مواضعَ منها، كالرُّكوع والسُّجود وبين السَّجدتين وآخر الصَّلاة، كما أخرجه الشَّيخان وأهلُ السُّنن، وكان ﷺ يُطيل الرُّكوع والسُّجود والتَّهجُّد لذلك"[2].

وإن أُريد به طلبُ الغفران؛ فيوحي بأنَّهم يقومون، فيُصَلّون، أو أنَّهم يؤخِّرون الاستغفارَ مِن ذُنوبِهم إلى السَّحر، أي: إنَّهم "مَدّوا في الصَّلاة، ونشطوا، حتّى كان الاستغفارُ بسحر"[3].

دلالةُ صوغِ الفِعْلِ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مضارعًا:

الكريمُ يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقلُّه، فيعتذر منه، واللَّئيم يأتي بالقليل، فيستكثرُهُ

في صوغ الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على فَرْطِ نشاطهم، وقوَّة تعلُّقهم بربِّهم ﷻ، وتجديدهم استغفارًا بعد استغفارٍ مِن غير مَلَل ولا كَلَل، فهكذا يفعلُ الإيمان بصاحِبِه، يَمُدُّه بالهِمَّة، ويعمُر روحَهُ بحُبِّ الخالق ﷻ، فكلَّما اقترب؛ ازداد نشاطًا، وأصبح أكثر تَوَقًّا وشَغَفًا.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 38.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 39.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 509 بتصرف.

وفيه "إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يتَهَجَّدون، ويَجْتَهِدون، يريدون أن يكون عَمَلُهم أكثرَ مِن ذلك، وأخلصَ منه، ويستغفرون من التَّقصير، وهذه سيرةُ الكريم، يأتي بأبلغ وجوهِ الكرَم، ويستقلُّه، ويعتذِرُ مِنَ التَّقصير، واللَّئيم يأتي بالقليلِ، ويستكْثِرُهُ، ويَمُنُّ به"[1].

إشارة إسناد فعل الاستغفار إلى ضمير الجماعة:

الجماعة الصّالحة تجتمع على الخيرِ والبرِّ

في إسناد فعلِ الاستغفار إلى ضمير الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ الجماعةَ الصّالحة تُعين أفرادَها على التَّقوى، وأنَّ الاستغفارَ صنيعُ جماعة المتَّقين؛ إذ تَجْمَعُهم صنوفُ الخيرِ، وأعمالُ البرِّ.

دلالةُ السّين والتّاء في الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

المُحسنون متعلّقون بطلَبِ المَغْفِرَةِ حريصونَ عليه

السّين والتّاء في الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تُلمِحان إلى قوَّة اجتهادِ المُتَّقين المُحْسِنين في طلَبِ المغفرة، وشدَّة تعلُّقهم بهذا الرَّجاء، وتكلُّفهم له التَّكاليف التَّعبُّديَّة، فالظَّفَر بالمغفرة غايةٌ يُبذَل لها الغالي والثَّمين من الوقت والجهد والمال، والمُتَّقون المحسنون بِنَيْلها أولى النّاس.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

المتَّقون المحسنون يجمعون بين عبادة البدنِ وعبادةِ المال

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ عاطفة، تجمَعُ لهؤلاء المتَّقين بين عبادة الجسَدِ وعبادة المال، وبين النَّفع اللّازم والنَّفع المتعدّي، وهكذا المسلم النّافع لغيرِهِ خيرٌ عند الله تعالى من المسلمِ القاصِرِ خيرَه على نفسِه، فمِن صفات المتَّقين التَّجلّي بالعبادتين جميعًا، وأنَّهم يبذلون من عُمُرهم وجُهْدهم ومِن أموالهم وفَضلِ الله تعالى الَّذي آتاهُم، فَمَنْ فَعَلَ ذلك؛ دخَلَ تحتَ هذا الشَّرف العَظيم، وطهَّر ماله مِن شَوائبِ الحَرام.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 168.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفْرَدَة المالِ في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

المتَّقون المحسنون يؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ

التَّعبيرُ بالمال في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ إشارة إلى أنَّهم يَقْتَطعون هذا القدر ممّا يُتَمَوَّل به، ويُستعان به على أعباء الحياة، فهم يحتاجونه لأنفُسِهم وعيالهم، ومع ذلك تجودُ به أنفسُهم، وتسخو قُرْبةً إلى الله تعالى، وثِقَةً فيما عنده ﷻ.

لطيفةُ الإضافة في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

طيبُ أموالِ المتَّقين المحسنين

في إضافة الأموال إلى ضمير الجماعة في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ما يُفْصِح عن حِلِّ تلك الأموال، وأنَّها مِلك لهم على سبيلِ الحقيقة، لا أنَّها تحت سَطْوَتِهم بالاستغلال والانتهاب، إنَّها أموالهم هُم، والحاكم في ذلك هو عِلْمُ الله ﷻ الَّذي لا تغيبُ عنه غائبة، وهذا داعٍ للعبد إلى تحرّي حِلِّ أمواله الَّتي سَيُنْفِق منها في سبيل الله ﷺ، فيجبُ أن تكون حلالًا كلُّها؛ لتُقبَل، ويُبارَك له في أجرِها، ويتحقَّق فيها الثَّواب الموعود؛ لأنَّ قليلَ الحرام يفسِدُ المالَ كلَّه، ويعرِّضه للرَّفض وعدم القبول، كما يُروى في الحديث: «ما خالَطَتِ الصَّدَقَةُ مالًا قَطُّ إلّا أهْلَكَتْهُ»[1]، وجاء في مسندِ الحُميديِّ بعد روايته هذا الحديث: "قَد يَكونُ قَد وجَبَ عَلَيكَ في مالِكَ صَدَقَةٌ، فَلا تُخْرِجُها، فَيُهْلِكَ الحَرامُ الحَلالَ"[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَقٌّ﴾، ونكتة تنكيره:

المحسنون يَسْتَوْجِبون على أنفُسِهم للسّائل والمحروم حقًّا غير الزَّكاة

في التَّعبير بـ ﴿حَقٌّ﴾ هنا إشادة بفعل المتَّقين المحسنين في هذا العطاء الزّائد عن الزَّكاة الواجبة الَّذي أفرزوه[3]، وعيَّنوه من أموالهم، و"صاروا يَرَوْنَهُ حقًّا لهؤلاء الضُّعفاء المحتاجين، لا يشعرون

(1) رواه البخاري في التاريخ الكبير، رقم: (549)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم: (5057).

(2) الحميدي، مسند الحميدي، أحادِيثُ عائِشة أُمِّ المُؤمِنِين ﵂ عن رسُولِ اللّهِ ﷺ: 1/ 275 برقم: (239).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 418.

فيه بمنَّةٍ ولا علوٍّ ولا فَخار[1]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنَّه حقٌّ سوى الزَّكاة، تَصِلُ له رحمًا، أو تَقري به ضيفًا، أو تَحمل به كلًّا، أو تُغني به محرومًا[2].

ويوحي تنكيرُ ﴿حَقٌّ﴾ بأنَّه "نصيب وافر، يَستَوجِبونه على أنفُسِهم؛ تقرُّبًا إلى الله ﷻ، وإشفاقًا على النّاس"[3]، و"أُطلِق عليه لفظُ الحقِّ؛ إمّا لأنَّ الله أوجب على المسلمين الصَّدقة بما تيسَّر قبل أن يَفرض عليهم الزَّكاة، فإنَّ الزَّكاة فُرِضت بعد الهجرة، فصارت الصَّدقة حقًّا للسّائل والمحروم، أو لأنَّهم ألزموا ذلك أنفسَهُم حتّى صار كالحقِّ للسّائل والمحروم، وبذلك يُتَأوَّلُ قولُ مَن قال: إنَّ هذا الحقَّ هو الزَّكاة"[4].

نكتةُ تقديمِ القيد (في أموالهم) على ﴿حَقٌّ﴾:

في تقديم المتعلِّق (في أموالهم) على المبتدأ ﴿حَقٌّ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المحسنين لا يتطلَّعون إلى أموال غيرهم، ولا يتصرَّفون فيها، ولا يَقْضون فيها بقضاء، وإنَّما يَقْضون في أموالهم هُم بتَعْيين هذا الحقِّ للسّائل والمحروم، وفي تقديمه كذلك إشارةٌ إلى أنَّهم مُتَيَقِّظون لِما يفعلون، عالمون بما يُخرِجون.

تـرْكُ المحسنين الـتَّـطـلُّـعَ إلى أموال غيرهم

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾:

(اللّام) في القيد ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ لامُ الاختِصاص والتَّمليك، فالمتَّقون المحسنون يختَصّون السّائلَ والمحروم بهذا الحقِّ على جهة تمليكهم إيّاه، وخروجه من ملكيَّتهم، وبذلك لا يَبْقى لهم سلطانٌ عليه، فلا وجهَ لِفَخْرٍ بعطاء، ولا مجال لِمِنَّةٍ؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وفي هذا الاختصاص

عطاءُ المُحْسِنين للسّائل والمحروم يكون على وجهِ التَّمليك بلا مِنَّةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 366.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 10.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 351.

والتَّمليك إشعارٌ للسّائل والمحروم بالتَّكريم، وأنَّ هذا الحقَّ إنَّما هو لهما، ويَخُصُّهما، ولا دخلَ لأحدٍ بهِ، ولا تصرُّف لأحدٍ فيهِ.

معنى (أل) في (السّائل):

المحسنون يُعطون كلَّ سائل يسألهم دونَ النَّظر إلى حالهِ

السّائل هو المُستَجدي[1]، و(أل) في (السّائل) جنسيَّة تفيد الاستغراق، تدلُّ على أنَّ كلَّ سائل يسأل المتَّقين المحسنين يُعطونه، ولا يمنعونه، وليس من شيَم المُتَّقين المُحسِنين رَدُّ السّائل ما دام المسؤول يملك العطاء.

ويحتَمِلُ أن تكون (أل) في (السّائل) للعهْدِ العلميِّ، فهي تُلمح إلى نوعٍ معيَّن من السّائلين وهم السّائلون المحتاجون لا المتزيِّدون المستكثرون، فهؤلاء قد يتَّخذون المسألةَ حِرْفَةً، وقد حذَّرهم الرَّسول ﷺ، فقال: «ما يَزالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النّاسَ، حَتَّى يَأتيَ يَومَ القيامَةِ لَيسَ في وجهه مُزْعَةُ لَحْمٍ»[2].

دلالة صوغ (سائل) اسمَ فاعلٍ:

المحسنون لا يتضجَّرون من دوام سؤال السّائلين

وفي صوغ (السّائل) اسمَ فاعل كنايةٌ عن كرَم أخلاق المُحسِنين المسؤولين؛ لِما في اسميَّة (السّائل) مِن دوام سُؤاله وتَكراره حتّى يصير السُّؤال دَيْدَنًا له معروفًا به، ومع ذلك لا يتضجَّر المتَّقي، بل يَظلُّ يَهَشُّ له، ويبشُّ، ويعطيه ما دام قادرًا على العطاء، وفي ذلك المنهج بيانٌ خطأ مَن يَصدّون النّاسَ عن العطاء بِحُجَّة أنَّ المسألة صارت مِهنة يَمتهِنها السّائلون، ومن جميل ما قيل في هذا المعنى قولُ الشّاعر:

تَراهُ إذا ما جئتهُ مُتَهَلِّلًا *** كَأنَّكَ مُعطيهِ الَّذي أنتَ سائِلُه[3]

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1474)، ومسلم في صحيحه، رقم: (1040).
(3) البيت لزهير، كما في ديوانه، ص: 92، ط، دار الكتب العلمية.

معنى (الواو) في قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾:

المحسنون ينوِّعون جهات العطاء، ويعدِّدون أفراد المعطين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ واو العطف، المفيدةُ المغايرةَ بين (السّائل) و(المحروم)، الجامعة بينَهما في عطيَّة المتَّقين المحسنين.

وفيها معنى التَّنويع في العطيَّة، وألّا يَقف المتَّقي عطيَّته على أحدٍ بعينه، بل يُنوِّع جهات العطاء، ويعدِّد أفراد المعطَيْنَ، فذلك يُربّي سماحة النَّفس، ويُرَسِّخ فيها معانيَ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: 265]، و"الفقراء ثلاثةٌ: السّائل الَّذي يطوف، ويسأل النّاس، والمعتَرُّ: الذي يعتَرُّ النّاس، ويُظهر حاجتَه للنّاس، ويتعرَّض للسُّؤال، ولا يسأل صَريحًا، والمحروم: هو الَّذي يستُر فقرَه وحاجتَه عن النّاس، لا يسألهم، ولا يعتَرُّ لذلك"[1].

معنى (أل) في ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾:

كلُّ محروم أهلٌ لأن يُعطَى

المحروم هو "المتعفِّفُ الَّذي يحسبُهُ النّاسُ غنيًّا، فيُحرم الصَّدقةَ"[2]، و(أل) في (المحروم) جنسيَّة استغراقيَّة، أي: إنَّ المتَّقين المحسنين يُعطون الحقَّ - الَّذي حدَّدوه، وعيَّنوه - لأيِّ محروم يصادفهم، ولا يختصّون به محرومًا دون آخرَ، بل كلُّ محرومٍ من جنس المحرومين أهلٌ لأن يُعطَى، وهكذا يفعل المتَّقون.

دلالةُ صوغِ (المحروم) اسمَ مفعولٍ:

لكلٍّ من الوصفَيْن خَصيصَتُه الدَّلاليَّة

خولِفت صيغة (السّائل) إلى صيغة (المحروم) هنا؛ للتَّنبيه في الأوَّل على خَصيصَةِ الفاعِلين المعبَّر عنهم بـ (السّائل)، والتَّنبيه في

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 380.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138. (بتصرّف).

الثّاني على خَصيصة المفعوليَّة المعبَّر عنهم بـ (المحروم)، الواقع عليه الحرمان، فلكُلٍّ وصفٍ منهُما إشاراتُه.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾:

جاءَ عن ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ السّائل الَّذي يسأل النّاس بِكَفِّه، والمحرومَ الَّذي ليس له في الإسلام سهمٌ، وهوَ المحارَف الَّذي لا يكون له مالٌ إلّا ذَهَبَ، قضَى الله ﷻ له ذلك، الَّذي ليس له أحدٌ يَعْطِف عليه، أو يعطيه شيئًا[1].

المَحرومُ مِن المَواضع الَّتي يُحِبُّ الله تعالى أن توضع فيها الصَّدقة

و"إطلاقُ اسمِ المحروم ليس حقيقةً؛ لأنَّه لم يسأل النّاس، ويحرموه، ولكن لمّا كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم؛ أُطْلِق عليه لفظُ المحروم؛ تشبيهًا به في أنَّه لا تصل إليه ممكِّنات الرِّزق بعد قُربها منه، فكأنَّه ناله حرمان، والمقصود من هذه الاستعارة ترقيقُ النُّفوس عليه، وحثُّ النّاس على البحث عنه؛ ليضعوا صدقاتِهم في موضعٍ يُحِبُّ الله تعالى وضعَها فيه"[2].

نكتةُ تقديم (السّائل) على (المحروم):

للسّائل أولويَّةٌ في العطاء؛ للضَّرورة التي ألجأته لمذلَّة السُّؤال

في تقديم (السّائل) على (المحروم) تنبيهٌ على صاحب الأولويَّة في العطاء؛ إذ لا يُقبِلُ على السُّؤال، ويتجرَّع مذلَّة المسألة غالبًا إلّا محتاج، مأزوم في أكلٍ أو علاج أو غيرهما من ضروريّات الحياة.

فالسّؤال يَكسر النَّفس، ويُريق ماء الوجه، ويُفترض في كلِّ من يسأل أن يكون مضطرًّا للسُّؤال؛ لذا ينبغي على المسؤول المبادرة بتوفير كرامته، وتخليصه من أزمته، أمّا المحروم؛ فقد لا يكون محتاجًا وقت العطاء، وإن كان فقيرًا محرومًا على الدَّوام.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في الآية الكريمة:

قال الله تعالى في سورة المعارج: ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤﴾ [المعارج: 24]، وفي

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 511.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 351.

الزَّكاة حقٌّ معلوم، والصَّدقات بحسبِ ما تيسَّر

الذّاريات: ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بإسقاط (معلوم)؛ لأنَّ المراد بآية الذّاريات: الصَّدقات النّوافل؛ لِقرينة تقدُّم النَّوافل، وبآية المعارج: الزَّكاةُ؛ لِتقدُّم ذِكر الصَّلاة؛ لأنَّها معلومةٌ مقدَّرة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأخذ والقبض:

الأخذ التناول، والقبض ضمُّ الأيدي على الشَّيء

الأَخْذ: التَّناوُلُ، تقولُ: أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أخذًا، أي: تَناوَلْتُهُ، وأَخَذَه يأخُذه أَخْذًا[2]، والقبضُ خلاف البَسْط، ويُقال: قبَضَ عليه بيَدِه؛ إذا ضَمَّ عليه أصابعه، ومنهُ مِقْبَضُ السَّيف، وقبْضُ الشَّيء: أَخْذُه[3]، فالقبضُ أخصُّ مِنَ الأخذِ مُطلقًا.

الهجع والنَّوم:

الهجوع هو النوم القليل الخفيف ليلًا، والنوم هو النُّعاس التّامُّ ليلًا أو نهارًا

الهَجْعُ: هوَ النَّوْمُ القليل الخفيف، ولا يكون إلّا ليلًا، والنَّومُ: النُّعاسُ[4]، وهو جُمودُ الحركةِ وسُكونها[5]، فالنَّوْمُ أعمُّ والهجوعُ أخصُّ منه.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 364.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (قبض).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"